إلياذة هوميروس لسليمان البستانى

عرض
أ. نبيل فرج
كاتب وناقد

هوميروس.
الياذة هوميروس / هوميروس؛ ترجمة سليمان البستانى ؛ تقديم جابر عصفور .- ط٢ .- القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٤ .
.- (المشروع القومى للترجمة . سلسلة ميراث الترجمة ؛ العدد ٧١٢ ، ٧١٣)

فى إطار المشروع القومى للترجمة ، الذى يصدر عن المجلس الأعلى للثقافة، استحدث المشروع سلسلة جديدة من الكتب بعنوان " ميراث الترجمة "، يعيد فيها إصدار الأعمال ذات القيمة.

الرفيعة فى تاريخ الترجمة العربية ، التى تمثل علامات بارزة ، على أن تتضمن الطبعات الجديدة من هذا الميراث مقدمات نقدية تعرف بها وبمكانتها فى هذا التاريخ .

ويشترط لإعادة طبع هذه الأعمال أن تكون ، مثل المشروع القومى ، مترجمة عن لغاتها الأصلية، لا عن لغات وسيطة .

بدأت هذه السلسلة الجديدة بإعادة طبع الياذة هو ميروس الشعرية لسليمان البستانى التى استغرقت من حياة معربها أكثر من خمسة عشر عاما ، وبالتحديد من ١٨٨٧ إلى ١٩٠٣ ، تنقل خلالها سليمان البستانى بين الأقطار العربية والأجنبية ، حاملا معه أقلامه وأوراقه ، كما كان هوميروس جواب الآفاق ، يحمل أشعاره فى أسفاره وتنقلاته .

وصدرت طبعتها الأولى فى القاهرة عن مطبعة الهلال فى ١٩٠٤ ، أى منذ مائة سنة ، لم يهتم فيها بهذا الأثر الخالد ، وبالكتابة عن هوميروس ، غير عدد ضئيل جدا من الكتاب والباحثين ، نذكر منهم: طه حسين ، ودرينى خشبة ، ومحمد صقر خفاجة ، ولويس عوض ، وأمين سلامة ، وعبد المعطى شعراوى ،ولطفى عبد الوهاب .

كتب مقدمة هذا العمل فى طبعته الثانية جابر عصفور ، معرفا به وبمترجمه وبالظروف التى صدرت فيها الإلياذة العربية، ومنهج البستانى فى الترجمة.

ولهذه الترجمة أهميتها التاريخية البالغة ، ليس فقط لأنها قدمت لأول مرة فى اللغة العربية

الملحمة اليونانية عن لغتها التى وضعت فيها؛ وإنما لأن هذه الترجمة تضمنت أيضا مقدمة علمية طويلة للبستانى فى مائتى صفحة من القطع الكبير، تعد بما حفلت به من أفكار وشروح وتحليلات منطقية من بواكير النقد الأدبى فى الثقافة العربية الحديثة ، صدَّر بها البستانى ترجمته التى تقع فى ألف صفحة ، امتحن فيها النص كأى محقق معاصر ، وعقد المقارنات بين الأدب اليونانى القديم والأدب العربى فى العصر الجاهلى ، موضحا خصائص كل من الأدبين التعبيرية ، وما ينطوى عليه من معتقدات وصفات أخلاقية .

وتكشف هذه المقارنات عن حس مرهف بأدب الفطرة الصافية الذى يخلو من التكلف والزخارف والتنميق ، وعن معرفة غزيرة بالأدبين اليونانى والعربى ، وبتاريخ كل من اليونان والعرب وشعائرها، فضلا عن القدرة العقلية على استخلاص الحقائق المحتجبة فى الميثولوجيا اليونانية.

وتتجلى هذه المعرفة أيضا فى تأملات وخواطر ومذكرات سليمان البستانى الخاصة ، كما نطالعها فى مؤلفاته وأبحاثه المدققة عن تاريخ الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده .

ويعتبر بعض النقاد أن دراسات البستانى المقارنة ليس لها نظير إلى اليوم، على كثرة المتخصصين فى الدراسات الكلاسيكية، وذلك بفضل علم البستانى وتبحره فى اللغتين العربية واليونانية .

ويعترف البستانى فى هذه المقدمة أنها أخذت منه ومن وقته ضعف ما أخذت الترجمة .

ولم يسبق البستانى فى الحديث عن هوميروس وإلياذته غير عدد ضئيل جداً من الكتاب فى مقدمتهم أو أولهم جورجى زيدان الذى نشر فى مجلة " الهلال " فى عدد أول ديسمبر ١٨٩٣ ، فى سلسلة مقالاته عن " أشهر الحوادث وأعظم الرجال " ، دراسة مطولة عن هوميروس ، لعلها أول كتابة فى اللغة العربية فى العصر الحديث عن شاعر اليونان وملحمته ، وفيها يشير جورجى زيدان الى شروع سليمان البستانى فى ترجمتها ، وهى الترجمة التى صدرت بعد نحو عشر سنين فى احتفال عالمى ، لم تشهد مصر له مثيلا ، لا قبل هذا التاريخ ولا بعده ، شاركت فيه الأقطار العربية والدول الأجنبية .

ولأن ترجمة البستانى للإلياذة كانت معروفة فى الأوساط الأدبية ، طلب الشاعر أحمد شوقى من المترجم - قبل طبع الإلياذة - أن يهديها الى خديو مصر عباس حلمى مقابل مكافأة مالية سخية.

وكان شوقى يسرف فى مدح الخديو عباس فى قصائد وصفها العقاد بأنها لا تعرفه للناس أو للتاريخ ، على حين أن الخديو لم يكن يحفل ، من جهة أخرى ، بالكتب أو بالكتاب .

ورغم حاجة البستانى الماسة الى المال ، إلا أنه رفض الاستجابة لهذا العرض الذى يسيل له اللعاب ، لأن هناك من هو أهم بالنسبة له من خديو مصر ، ومن هو أولى بهذا الإهداء من كل حى وميت ، ويعنى به والده خطار سلوم البستانى (١٨٣٠ - ١٨٨٦) ، الذى كان سليمان يشعر انه قَصَّر فى حقه عليه ، فى حياته ، بسبب كثرة أعماله

الثقافية والسياسية والتجارية ، وكثرة أسفاره البعيدة بين الشرق والغرب ، فأراد أن يعوّض ما فاته من الاعتراف بفضل هذا الأب عليه وعلى ذويه ، باهداء هذه الترجمة ، وهى أفضل ما أنتجه ، إلى هذا الأب وهو فى عالم الأرواح .

وقبل ان نعرض لترجمة البستانى لابد من الإشارة إلى أنه ولد فى مزرعة بكشتين على ساحل جبل لبنان فى ١٨٥٦ وتوفى فى ١٩٢٥ . درس فى طفولته وصباه من سن السابعة ولمدة ثمانى سنوات، من ١٨٦٣ الى ١٨٧١، فى المدرسة الوطنية فى بيروت لمؤسسها قريبه بطرس البستانى .

وبعد تخرج البستانى فى المدرسة الوطنية اتجه الى الكتابة والتحرير فى عدد من الصحف اللبنانية، وعاون فى تأليف دائرة معارف البستانية مع نجيب ونسيب البستانى .

ثم دعى إلى العراق للتدريس فى البصرة ، ولإنشاء جريدة بها .

ويمكن القول إجمالا بأن البستانى شغل فى بلاده عدة مناصب سياسية تحمل تبعاتها ، أهمها إنتخابه نائبا عن بيروت فى مجلس النواب العثمانى، وقام ببعض المهام الديبلوماسية التى صرفته عن فنه .

ولكن عندما أصدر الصدر الأعظم للدولة العثمانية فتوى دخول الحرب العالمية الثانية ، قدم البستانى استقالته ، لأنه كان يرى فى عدم حياد تركيا، فى هذه الحرب، خطراً فادحا يجلب النكبات على الوطن ، ولم يجد من يناصره .

وبهذه الاستقالة التى تدل على غياب التشريع المدنى ، استأنف البستانى أعماله الأدبية والعلمية ، مستشعرا أنه بانصرافه إلى السياسة وأحراشها أساء الى نفسه ، وإن خفف عن قلبه الصديع أنه لم يسىء إلى أحد آخر .

وفشلت جميع المحاولات التى بذلت حينذاك لاعادة البستانى الى العمل السياسى .

كان البستانى يجيد من اللغات إلى جانب العربية، الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، ويقرأ بالفارسية أشعار سعدى وحافظ والفردوسى وعمر الخيام .

ولا شك أنه استأنس فى ترجمته للالياذة بترجمهاتها فى هذه اللغات ، وبينها ترجمات رفيعة، مثل الانجليزية ، تجمع بين الدقة والجمال .

والترجمة أو التعريب عند البستانى هو نقل المعنى المنظوم شعراً فى النص اليونانى الى نظم هذا المعنى فى الشعر العربى ، لا يزيد عليه ولا ينقص منه ، ولو اقتضى هذا النقل للمعنى تفاوتا فى عدد الكلمات، طالما أن القالب أو النظام أو التركيب العربى للعبارة جيد السبك ، يراعى الأذن العربية والذوق المعاصر .

وأى خلل فى هذا البناء ، الذى ترتبط فيه الأوزان بموضوعها ، يذهب بنضارة التعبير .

وقد ترتب على هذا التفاوت فى عدد الكلمات العربية المقابلة لليونانية تفاوت عدد الأبيات الشعرية بين الأصل والتعريب ، يقل فيه التعريب عن الأصل الذى يقع فى أربعة وعشرين نشيداً ، بنحو خمسة آلاف بيت من الشعر .

وساعد على حسن هذه الترجمة أو هذا التعريب تنوع أشكال النظم عند البستانى ، الذى يحرر الشعر العربى من تقليديته ، والتقارب بين الطابع الملحمى للشعر اليونانى ، والطابع القصصى للشعر العربى الذى تفنى فيه شخصية الشاعر ، وتبرز حياة الجماعة ، كما تعبر الملحمة . وساعد على تحسن الترجمة وقبولها تجنب البستانى استخدام الكلمات أو التراكيب الوحشية الوعرة تجنبه للقوافى الصعبة .

ويمضى فى هذا الاتجاه ترجمة البستانى الأسماء اليونانية بمعناها أو بما تدل عليه ، وبصفة خاصة الأسماء اليونانية التى لا تنطق بسهولة فى العربية ، فوجد فى وصفها أو تحريفها ما يؤدى الغرض .

وفى اللغة العربية من اتساع المفردات ووفرة الاشتقاقات ما يساعد على تحقيق هذه الغاية .

ورغم هذا الحل الذى اهتدى إليه بالبداهة ، دون الرجوع الى متون سابقة ، يعترف البستانى فى مقدمته بأن ترجمته العربية لا ترقى إلى مستوى الأصل اليونانى، ويخص بالذكر المواقف الشعرية البالغة الروعة، فى النص الأصلى ، وإحكام صنعتها الفنية .

هذه المواقف التى استلهمها هوميروس من الحكايات الشعبية عن الحرب الضروس بين اليونان وطروادة، التى نشبت قبل الميلاد بألف عام ، بسبب خطف باريس أمير طروادة لهيلانة زوجة ملك اليونان، حين بهره جمالها وبهرتها جماله ، وهو سبب يخالف ما ورد فى كتب المؤرخين من أن الحرب نشبت بسبب التنافس التجارى والتحكم فى البحار بما يعنى أن الحب والجمال فى نظر هوميروس كان سببا كافيا لنشوب هذه الحرب .

أما بالنسبة للعصور العربية القديمة ، فيمكن القول أن هوميروس كان معروفا فى ثقافتها ، وإن لم تترجم إلياذته فى هذه العصور .

وأشهر من ذكر اسم هوميروس فى الكتابات والتصانيف الشرقية القديمة البيرونى والشهر ستانى وابن مسكويه والبهاء العاملى وابن العبرى وغيرهم.

وللقيمة الرفيعة لهذه الإلياذة ترجمت وحققت فى اللغات الأوربية، ابتداء من سنة ١٤٨٨، عشرات المرات. وهى أول نص يطبع بالحروف المنضدة فى عصر النهضة .

وتؤلف الكتب والدراسات التى عقدت عنها فى مختلف اللغات مكتبة أو مكتبات كاملة لا يستطيع أديب أو مثقف أن يستغنى عن معرفتها .

ولأن ترجمة البستانى فى العربية لا تغنى عن ترجمة جديدة أمينة ، تفيد من الدراسات الهوميرية التى تزخر بها الآداب الحديثة ، قدم المشروع القومى للترجمة فى عدده رقم (٧٥٠) ترجمة نشرية جديدة ، أكثر دقة بالطبع وأكثر سهولة من ترجمة البستانى ، أشرف على تحريرها أحمد عثمان .

وعقد " مؤتمر الترجمة وتفاعل الثقافات " (٢٩مايو - ١ يونية ٢٠٠٤) ، الذى صدرت فيه الترجمتين ضمن فعالياته ، حلقة بحثية عن "الإلياذة عبر العصور " ، تناولت الكثير من

القضايا النقدية التى تثيرها ، ومنهج الترجمة السليمة .

شارك فى هذه الحلقة البحثية عدد كبير من المترجمين والباحثين المتخصصين فى الآداب القديمة .

ولعل أهم هذه القضايا : هل الالياذة من إنشاء شاعر واحد هو هوميروس ، أم انها من إنشاء مجموعة من الشعراء والمنشدين الشعبيين المجهولين، تتابعوا على مدى زمن طويل منذ الربع الأول من القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، إلى أن صاغ هوميروس من هذا التراث الشفاهى صورته الأخيرة المتكاملة فى أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، وأضاف إليها ما أوحت به الآلهة إليه .

ومقدمة البستانى تثبت أنه طالع الكثير من الأسفار والمجلدات العربية والأجنبية فى الأدب والشعر والتاريخ ، وأنه وقف على الأبحاث الحديثة للعالم الألمانى «ولف» التى تنكر من أواخر القرن الثامن عشر إنشاء هوميروس للإلياذة ، بل وترى أنه شخصية وهمية ، ليس لها وجود حقيقى .

هناك أيضا من هذه القضايا فن هوميروس الواقعى وحكمته وقدرته الخارقة على وصف المواقف والخلجات النفسية، فى زمنه ووسطه البيئى. وهذا ما ينطبق نسبيا على الشعر العربى، ويجعل من الأدبين مثالا صادقا للحياة، مع الفروق بينهما.

ويؤكد إئتلاف أجزاء الملحمة اليونانية فى كل متماسك ، عند البستانى ، أنها من إبداع شاعر واحد هو هوميروس .

وأثر الإلياذة فى الآداب العالمية. ودين الشعراء لهوميروس، ليس بالبسيط دون أن يستطيع أحد من الشعراء أن يتفوق عليه ، أو يرقى إلى مستواه الإنسانى الرفيع ، بما فيهم فرجيل ، وتاسو ، وملتن .

وأكثر هذه القضايا التى أثيرت فى مؤتمر الترجمة قضايا خلافية تتقاطع فيها الآراء ، إلا انها وجدت فى حلقة البحث الخاصة بالالياذة من يجيب عليها إجابة علمية تعتمد على معرفة واسعة بالتراث الانسانى ، وفى مقدمته تراث اليونان .

وسيطلع القراء على كل ما قيل فى هذه الحلقة عن ألياذة هوميروس فى الترجمة الأولى والثانية حين يصدره المجلس الأعلى للثقافة فى كتاب، ضمن مطبوعات المجلس، وقائع وأبحاث مؤتمر "الترجمة وتفاعل الثقافات" .

وقد وضع البستانى بخطه إهداء إلى والده فى بداية العمل ، وكذلك زود العمل بصورة لوالده تم وضعهما فى نهاية هذا العرض.

اليك يا والدي اهدي كتابي هذا فانت اولى به من كل حي
وميت. وما هو الا ذرة من فضلك وجزء من عنايتك بتربيتك
وتفانيك لنفع ذويك وبني جلدتك. فان عجزت عن اداء واجب
الوفاء بحياتك فلا اقل من ان اشهد الملأ على عرفاني
بجميلك وانت في عالم الارواح

اهداء الالياذة بخط البستانى